بله والعقل السليم يصدقه فهو يدخل فى مثل قول ابن مسعود رضى الله عنه ر صاحب المعروف لا يقع وإن وقع وجد متكأً) وأن منع الصدقة عن مستحقها يجعل العزيز ذليلا فالظلم عاقبته وخيمة .

الفصل السادس

الوعظ فى القرن السادس وتقدير الأمراء له

كانت مدينة السلام (بغداد) تمتاز على غيرها من مدن العالم الإسلامى بكثرة فقهائها المحدثين . ووعاظها المذكرين . وكان لهم فى طريقة الوعظ والتذكير ومداومة التنبيه والتبصير . والمثابرة على الانذار المخوف والتحذير . مقامات تستنزل لهم من الله تعالى واسع الرحمة وجزيل الإحسان ، وتمنع القارعة الصما أن تحل بدارهم . مقامات خلدت لهم أحسن الذكرى وجميل الأحدوثة . قال أبو الحسين محمد بن أحمد ابن جبير الأندلسى من أدباء القرن السادس فى رحلته ما محصله — فأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الإمام رضى الدين القزوينى رئيس الشافعية وفقيه المدرسة النظامية . والمشار إليه فى التقديم فى العلوم حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة إثر صلاة العصر من يوم الجمعة . فصعد المنبر وأخذ القراء أمامه فى القراءة على كراسى موضوعة . فتوقوا وشوقوا وأتوا بتلاحين معجبة ونغمات محرجة مؤثرة — ثم اندفع الإمام المذكور وخطب خطبة سكون ووقار . وتصرف فى أفانين من العلوم من تفسير كتاب الله عز وجل . وإيراد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والتكلم على معانيه ، ثم وجهت إليه المسائل من كل جانب فأجاب عنها وما قصر ، ودفعت إليه عدة رقاع فجمعها فى يده وجعل يجاوب عن كل واحدة منها وينبذ بها إلى أن فرغ منها ، وحان المساء فنزل وافترق الجمع : فكان مجلسه مجلس علم ووعظ وقورا هيناً ليناً لهجت فيه البركة والسكينة أرسلت فيه العبرات لا سيما فى آخره فانه سرت حميا وعظه فى النفوس حتى أطارتها خشوعا وفجرتها دموعا . وبادر التائبون إليه وقوعا على يده .

وشهدنا له مجلساً ثانياً إثر صلاة العصر يوم الجمعة أيضاً حضر ذلك اليوم مجلسه سيد العلماء الخراسانية . ورئيس الأئمة الشافعية صدر الدين الخَجَندى دخل المدرسة المذكورة فاهتزت له القلوب . ورمقته العيون . فأخذ الإمام رضى الدين فى وعظه مسروراً بحضوره متجملا به فأتى بأفانين من العلوم على حسب مجلسه الأول فأفاد وأجاد .

ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه الإمام الأوحد جمال الدين أبى الفضائل عبد الرحمن بن على الجوزى بإزاء داره على الشط بالجانب الشرقى على اتصال من قصور الخليفة . وهو يجلس به كل يوم سبت فشاهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد . وفى جوف الفرا كل الصيد . آية الزمان . وقرة عين الإيمان . رئيس الحنبلية . إمام الجماعة . وفارس حَلْبة هذه الصناعة . المشهود له بالسبق فى البلاغة والبراعة . مالك أزِمَّة الكلام فى النظم والنثر ومن أبهر آياته أنه يصعد المنبر و يبتدىء القراء بالقرآن وعددهم يربو على العشرين قارئا . فينتزع منهم الثلاثة آية من القرآن يتلونها على نسق بأدب وخشوع فإذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية . ولا يزالون يتناو بون آيات من سور مختلفات إلى أن يتكاملوا قراءة فاذا فرغوا أخذ الإمام الغريب الشأن فى إيراد خطبته مجلا مبتدرا . وأفرغ فى أصداف الأسماع من الفاظه دررا . وانتظم أوائل الآيات المقروءات فى أثناء خطبته فِقرا وأتى بها على نسق القراءة لا مقدماً ولا مؤخراً . ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها فلو أنّ أبدع من فى مجلسه تكلف تسمية ما قرأ آية آية لعجز عن ذلك فكيف بمن ينتظمها مرتجلا . و يورد الخطبة الغراء بها عجلا . « أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون » تحدث ولا حرج عن البحر وهيهات ليس الخبر كالخبر . ثم إنه أتى بعد الفراغ من خطبته برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب . وذابت بها النفوس . إلى أن علا الضجيج وأعلن التائبون بالصياح . وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح . كل يلقى ناصيته بيده فيجرها و يمسح على رأسه داعياً له . ومنهم من يغشى عليه و يرفع فى الأذرع إليه فشاهدنا هولا يملأ النفوس إنابة وندامة . و يذكرها أهوال يوم القيامة

– وفى أثناء مجلسه ذلك تطير إليه الرقاع بالمسائل فيجاوب أسرع من طرفة عين ربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل — والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

ثم شاهدنا له مجلسا ثانيا بكرة يوم الخميس بباب بدر فى ساحة قصور الخليفة ومناظره مشرفة عليه وهذا الموضع فى حرم الخليفة خص بالوصول إليه والتكلم فيه ليسمعه من تلك المناظر الخليفة ووالدته ومن حضر من الحرم ويفتح الباب للعامة فيدخلون إلى ذلك الموضع وقد بسط بالحصر وجلوسه بهذا الموضع كل يوم خميس فبكرنا لمشاهدته بهذا المجلس وقعدنا إلى أن وصل هذا الحبر المتكلم فصعد المنبر وقد تسطر القراء أمامه على كراسى موضوعة فابتدروا القراءة على الترتيب فبكت العيون لقراءتهم فلما فرغوا منها وقد أحصينا لهم تسع آيات من سور مختلفات سطع بخطبته الزهراء الغراء وأتى بأوائل الآيات فى أثنائها منتظمات ومشى الخطبة على فقرة آخر آية منها فى الترتيب إلى أن أكملها وكانت الآية « الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن الله لذو فضل على الناس » فتمادى على هذا السين . وحسن أى تحسين . فكان يومه ذلك أعجب من أمسه . ثم سلك سبيله فى الوعظ كل ذلك بديهة لا روية . ويصل كلامه فى ذلك بالآيات المقروءات على النسق مرة أخرى . فأرسلت وابلها العيون . وأبدت النفوس سر شوقها المكنون . وتطارح الناس عليه نادمين تائبين فطاشت الألباب . واستولى عليها الولَهُ والذهول . واهتزت القلوب ولم تجد للصبر سبيلا ثم فى أثناء مجلسه ينشد بأشعار من النسيب مبرحة التشويق بديعة الترقيق . تملأ القلوب خشية وزهداً وكان آخر ما أنشده من ذلك وقد أخذ المجلس مأخذه من الاحترام وأصابت المقاتل سهام ذلك الكلام :

أين فؤادى أذابه الوجد وأين قلبى فما صحا بعد
يا سعد زدنى جوى بذكرهمُ بالله قل لى فديت يا سعد

ولم يزل يرددها والانفعال قد أثر فيه والبكاء كاد يمنعه من الكلام فنزل عن

المنبر دهشا . وقد أطار القلوب وجلا . وترك الناس على أحر من الجمر يشيعونه بالدموع . فمن معلن بالانتحاب . ومن متعفر فى التراب . فياله من مشهد ما أهول مرآه . وما أسعد من رآه — وما كنا نحسب أن متكلما فى الدنيا يعطى من ملكة [1] النفوس والتلاعب بها ما أعطى هذا الرجل الذى يضيق الوجود عن مثله ، فسبحان من يخص بالكلام من يشاء من عباده لا إله غيره .

وشاهدنا بعد ذلك مجالس لسواه من وعاظ بغداد ممن يستغرب شأنه بالإضافة لما عهدناه من وعاظ الغرب — وكذا قد شاهدنا بمكة والمدينة مجالس لجملة من كبار العلماء من خراسان وغيرها فصغرت بالإضافة لمجلس هذا الرجل الفذ — فسبحان من جعله عبرة لأولى الألباب — فهذا يبين لك كيفية وعظ الأولين ومبلغ اعتناء المتقدمين من كبار العلماء بإرشاد الناس وتذكيرهم وإقبال الأمة والأمراء عليهم . والانتفاع بهم . ويدلك على منزلتهم من العلم . ومكانتهم من النصح والتذكير . وأنهم بحق أحكموا وسائل التأثير فى النفوس . وبرعوا فى الاستيلاء على القلوب . وأنهم كانوا يغترفون نصائحهم من مناهل الكتاب والسنة . وقد ساعدهم على هذا الفوز العظيم أنهم كانوا على جانب كبير من التقوى وصالح العمل . متجملين بالعفة والزهد والورع ، ومتكملين بالقناعة ومكارم الأخلاق « إن هذا لهو الفوز العظيم لمثل هذا فليعمل العاملون » .

فبمثل مقامات هؤلاء الأجلاء . المباركين الأولياء ، ترحم العصاة ، وتقلع الجناة وتستدام العصمة والسلامة ، وتسعد الأمم فى الدنيا والآخرة . والله تعالى أسأل أن يجازى كل ذى خير خيراً ، وينقذ ببركة العلماء العاملين عباده العاصين ، من سخطه وغضبه برحمته وكرمه ، إنه المنعم الكريم الرحمن الرحيم .

---

(١) الملكة محركة مصدر كالملك أى الاستيلاء عليها بقوة روحه فى العظة .